الخبز والنسيان

قصة بقلم عفيف بهنسي

لم استطع مشاركة الآخرين في تنحابهم وبكائهم رغم انني كنت اشدهم حسرة وألماً . فاللوعة كانت تقدح اضطراماً نفسي فأشعر انني اقرب للانفجار مني الى البكاء واقرب للثورة مني للأسى واليأس .

وكنت اجول بناظري في وجوه الباكين والناحبين ، فلا ارى فيهم من تعصمه المصيبة عن فقدان صوابه في تلك اللحظة وإن كنت موقناً كل اليقين انهم ، اذا ما انفض الموكب ، عائدون كل الى زاويته ، يبحث عن مصيبة اخرى كي يبكيها ، او يبحث عن مهزلة اخرى كي يضحك منهـا ، فلم تكن حياتهم تحمل معنى خاصاً يدفعهم الى البحث عما هو جدير بهم ، عما هو جدير بمشكلتهم ، بمأساتهم أنفسهم . لقد اعتادوا هذه المأساة ، اعتادوا صفتهم فيها ، وهم انما يودعون راحلاً عاش صنعتهم هذه نفسها ، إلا انهم في تلك اللحظة ، ولانه مات ، لانه قتل نفسه بيده ، ينظرون نظرة خاصة الى ميتهم ، نظرة البطولة ، ويعيدون النظر في حياتهم فيرونهـا خلواً من تلك المأساة ، ويرونها بلا إشكال ولا تعقيد ، بلا تفاهة ، ولا حطة . فهم قانعون بها ، مصممون على قبولها ، وإني لأراهم الآن كيف كانوا يجدون الخطوات ودموعهم الغزيرة لا تنفك تتدفق من أعينهم وكأنها تتدفق عن إحساس بالمصيبة . وكأن اندفاع ارجلهم نحو اكواخهم الحقيرة ، الآمنة ، هو وحده الذي يصدر عن مثل هذا الاحساس ، إحساس الخوف ، الخوف من الموت ، من الانتحار ، الخوف على الحياة ، حتى التي يعيشونها وكأنهم عدم فيها .

كانوا يبكون وكنت أرغب بالبكاء لولا انهم كانوا يبكون . وكانوا يجرون وكنت أحب ان أجري قبلهم أو ان اجري بعدهم ، أن ابتعد عنهم ، ولكنهم كانـوا يجرون نحو اكواخهـم وكنت احب ان أجري لا إلى الامام ولا الى الخلف ، كنت احب ان اصعد، ان اجري الى اعلى ، الى حيث أستطيع ان أتـأمل ، الى حيث استطيع ان القي نظرة اكثر شمولاً على هؤلاء الذين هم قومي ، والذين يجري في عروقهم دمي ، ولكن دمي الذي فقد فيهم خاصة الحياة ، هؤلاء الذين يعيشون على آمالهم الهرمة ، ويتحركون بأعصابهم الرخية المشلولة ، هم أهل عشيرتي ، هم اقربائي الذين تركوا ديارهم مثلي والتجأوا الى هذه الأرض...

أريد ان أعرف فيهم معنى انسانياً ، أي معنى ، لقد ضاعت عني معانيهم، لم أعد أرى فيهم إلا أشباحاً ذابلة تتهالك على نفسها ، تحيا رتابة دقيقة . حتى لأحسب أنهم دقات الزمان المتشابهة ، كل دقة هي سابقة ومسبوقة فلا شعور بالزمانية ، لا شعور بماض ولا شعور بحاضر، لا شعور بتاريخ، بنضال بمأساة ، لا شعور بصيرورة ولا شعور بمآل. تمنيت لو انني اصعد نحو العلاء، لو انني أكشف من عل حقائقهم اكثر فأكثر ، تمنيت لو أستطيع ان انفي عدمهم أو اثبته ، أن انفي وجودهم أو اتحقق منه . كيف لي ان اخرج من هذا المضيق ، وجودهم وعدمهم يكاد يهصرني ، لا استطيع ان امكن اقدامي على الشاطيء الواحد حتى تزل بي الى اضيق المضيق أكاد أحطم هذا المضيق ، بل هذه هي رغبتي التي لا أستطيع تحقيقها .

وتابع الموكب مسيراته ، ولبثت انا في مكاني ، وكانت الساحة خالية ، رغم حشد البائسين !.. إلا انها لم تكن موجودة فعلاً الا في فكري ، فكري الذي يعبر عن ذاتي في صمتـه وعمقه . كان مشغولاً بالآخرين ، بهؤلاء الزاحفين نحو قبورهم وهم يرفضون الموت كما رفضوا الحياة .

لقد عادوا بعد ان شيعوا معي صديقي الى مثواه، صديقي الذي قضيت فترة الدراسة وبعض فترات النضال ، صديقي الذي حـارب واسر وهرب ثم اعيد الى المعتقل فحوكم وكاد العدو يقضي عليه قبل ان تعلن الهدنة ويكون هو احد المرضى الذين كفلتهم جمعية الصليب الاحمر . كان صديقي من كنت احدثه عشية الامس ، ومن اصبح اليوم تحت التراب ، كان بالامس كما هو اليوم ، بالأمس كان موطىء كوابيس المـأساة ، واليوم اصبح موطىء الاقدام ، اقدام اليائسين . انه لم يعد يشعر بوطء الكوابيس ولا بوطء الاقدام ، هذا ما كان يبغيه من انتحاره ، لقد كان يريـد الخلاص من مخـالب المصير الذي انتهى اليه هو وقومه وكان يؤمن بعجزه عن متابعة احتمال جراحات هذه المخالب . قال لي في تلك العشية : « لقد بلغت حياتنا من التفاهة الحد الذي يشرفنا ان نموت قبل الانتهاء اليه » . وها هو اليوم يقضي بيده، وكان علي ان افهم البارحة كلمته على انها قرار جدي، ولعلي فهمتها كذلك ، إلا انني اردت ان يختار ما يشاء، ولو كان ما سيختاره هو الموت ، اذ ان امكانياته لا تنطوي على اكثر من هذا الموت نفسه ، لقد استنفد طاقته بهذا الانتحار ، الا انني اليوم لا املك اكثر من احتقاره ، احتقار هذا الانسان الذي لا يملك الا العـدم ، ولا يستطيع تحقيق غير العدم . لقد قضى صديقي ، وهذه هي حقيقته، حقيقته موته . ولا يمكن ان ابكي هذا الصديق لا يمكن ان ابكي ميتـاً يموت . وما دموعي التي تغالب اجفاني الا حسرات على الامكانيات التي كنت اشيمها في نفوس هـذا القطيع الجرار الذي كان يسيل وراء نعش صديقي كالقيـح ينز عن جرح كريه . سأعود الى خيامنـا واكواخنـا سأبحث عن باقي الاصدقاء والاهل ، لن اجد احداً !..

لقد سافر اخي وابناء اعمامي الى اراضي النفط ، لقد شردنا العدو عن اوطاننا ونثر لنا نقوده بل نقودنا في ارجاء العالم فانطلقنا اليها نريد بها خبزنا ومعاشنا ، هكذا اصبحت حياتنا ، خـبزاً نأكله كي نعيش وكي ننسى اعداءنا ونذكر من جديد اولياء نعمتنا الجديدة ، الخبز والنسيان ...

يقال ان في خيامنا جائعين وعاطلين ومرضى وجـاهلين ، وتتسابق الاغاثات العالمية اليهم ، وهم ينتظرون مجيئهم ، ينتظرون الطعـام والعمل والدواء والعلم على ايديهم ، بدون اجر ، الا رصيد كرامتهم مهما كان ضئيلاً ورصيد حيويتهم مهما كان مريضاً . ومع ذلك فانك لن تؤمن معي بالجوع والبطالة والمرض والجهل ان تعيش في صفوفهم اذا علمت انني منهم، انا من يكتب لك هذه الكلمات. ولك الحق ألا تؤمن بذلك، لو لم اهمس في اذنك خجلاً ان هذه هي الحقيقة . الحقيقة التي ارادهـا بنو امتي لبعض ابنائهم ، عندما عشنا استسلامنا العابث للمجهول ، للامل الغـامض، تحركنا دوماً قوة خارجة عنا آمنا بها في كدرها.

سأعود الى خيامنا ، لن القى احداً ، لن القى الشباب ولا العزيمة ولا العمل ، سألقى صورة ثابتة هي الصورة نفسها التي لقيتها في حالتي الاولى يوم التجأنا تاركين ديارنا .

لن القى احداً ، بل قد القى احداً ، ولذلك فاني سأعود...سأعود من

اجلها ، من اجل عائشة، من اجلها سأعود ، اريد ان تغذي قلقي الذي اعانيه ، اريد ان تخلق معي حياة اخرى لهذا القوم البائس ... انها هناك بينهم ، سأذهب اليها وحدها، لا اريد ان اقبلها ، لا اريد ان تلامس يدي نهديها . لا ، لا اريد ذلك. اريدها ذكاء لثورتي على كرمي، على امتي ، على العالم ، على العدل والظلم ، على النظام والعبث ، على الاخلاق والفساد ، على الحق ، على الاغتصاب ، اريد ان اكون انساناً ، سأهدم ذاتي لابنيها دوماً واعيش حالتي الجديدة التي اعمل فيها من اجل تغيير جديد .

هذه هي خيامنا قبور مسجاة مهترئة ، وهـــا أنذا أقبل عليها كعملاق كبير يكاد يطأ أعشاش اليعاسيب . كانت عائشة مع اترابهـــا يغسلن ثيابهن الخلقة البالية على حافةالنهر يطرقنها بقطع من الخشب لتنظيفها لندرة الصابون في ديارهم . ها هي ذي يعلو صوتها الناعم الجريء قائلة : « بهـــالمي ١ حياة وما فيكن حياة ». ووقفت عند هذه الكلمة وكنت انتظر ان يعلو النقاش ويشتد وكنت ارقب واحدة من صديقاتها ان ترفع صوتها احتجاجـــاً او دفاعاً ، عبثاً كأن واحدة منهن لم تفهم مـــا عنت عائشة ، او لعلهن فهمن مقصدها ولم يستطعن الدفاع عن انفسهن .

والتفتت عائشة الي فابتسمت ابتسامة خفيفة استقبلتني بها . الا ان دموعها الحبيسة في عينيها انفلتت فجأة كأنها تريد ان تعبر لي عن خيبتها في بنات جنسها ، ونظرت اليها وبقيت صامتاً لم تفتر شفتاي عن ابتسامة متبادلة كأنني اريد ان اعبر لها عن خيبتي في ابناء قومي !..

***

بارك الصحب زواجنا بعد شهر من انتحار صديقي . وباركـــا نحن نضالنا الجديد المشترك، نضالنا في سبيل كرامتنا وحريتنا وارضناومستقبلنا. لم يكن من أمل يحدونا في جهادنا ولم يكن من ألم متميز يدفع بنا الى العمل والجهاد .لا لقد كنا نعيش في ذواتنا وجودنا نحن وعدم الآخرين، ولذلك فقد كان نضالنا ضارياً ..

كانت عائشة قلبي الذي يحس ويألم ويتعطف ، وكنت انا فكرهاوثورتها وقرارها ، كان لنا اتجاه في نضالنا لم نعينه ولم نحدده ، لقد كان مجرد نضال وكان علينا ان نبلو فيه اشد البلاء ، وكان علينا ان نحياه لا أن نتسال في اخدوده المنظم . وكان همنا في البداية التنقل بين مخيات اللاجئين نبحث عن النفوس الراكدة ، عدا الامكانيات الصدئة ، نريد ان نجلو عنها غبارهـــا وصدأها .

والحق اننا لم نجابه عنتاً في ازالة ما تراكم على نفوس ابناء امتنا . لقد فهموا ان لا أجل ولا حق ولا وجود بدون عمل ، وان عليهم اولا ان يولدوا ولادة جديدة كي يبنوا حياة جديدة ولذلك فأنهم سوف يعيشون مرة واحدة كي يموتوا مرة واحدة في سبيـــل عيش شريف . سيكونون فداء امتهم ، سنتسلل الى بلادنا ، سنفجر هناك طاقاتنـــا وسنفتح الابواب لكرامتنا كي تسترد اعتبارها ، سنفتح الابواب لامتنا كي تعود الى ارضها فتجعلها قاعدة ، ولن تكون مقبرة .

سنموت جميعاً،هذا مبدأنا وهذه هي نهايتنا ولكننا سنحيا في قلوب ابنائنا وسوف نرصّع صفحات تاريخنا المجيد .

دمشق

عفيف بهنسي

---

١ أي في هذه الماء .

الجذع الجريح

•

نزلنا على وادٍ لبسنا ظلاله
وهمنا على نفح الربيع زمانا
وفرّقنا ما فرّق الناس قبلنا :
صروف ... فأنسينا الربيع كلانا
وظل على الجذع القديم جراحةٌ
وآية حب ثمّ يذّكرانا
وقد تمسح الايام كل كتابة
ويبقى على خضر الجراح هوانا
فياتلك، ان جئتِ العقيق ملمةً،
فأدني على الجذع الدميّ لمانا
وان رابك السرو البهيج فانني
خلعت على السرو البهي رؤانا
.. كذلك نجتاز الزمان ونثني
نلملم عن رمل الزمان خطانا
ونختزل الماضي هناتٍ نحبها
ونعصر واحات الربيع دنانا

جان عزيز